صيحة حق (*)

ايها الشرقي كيف يطيب لك النوم على غوارب هذه الامواج المضطربة، وفي مهاب هذه العواصف الداتية، اما ازعجك هذا الموج الملتطم، وارهبك هذا اللجُّ المتلطم، اما اقلقك هزيز [١] هذه الرياح المتناوحة، وهزّت جسدك زعازعها المتراوحة، ام صكّت آذانك، [٢] وخدّرت جثمانك، فتمذّر إسماعك وتحسيسك [٣] ويئس من ايقاظك وتنبيهك، ؟ لو انك بقظان لكنت اجدر بالاطيط [٤] من الغطيط [٥] وأخلق بالزفير والشهيق، من المكاء والتصفيق، ويحك هل انت فاقد الرشد لصغر سنك، واختبال عقلك، ام انت زمن عاجز؟ اذا كنت صحيح العقل والجسم فكيف رضيت ان تقيم الاجنبي وصياً وقيماً عليك بحيث اذا لم يقدم لك مادة طعامك وليوسك وكنك وادوات الوصول اليها تموت من الجوع والعرى وهو لا يسمح لك بهذا اللماج [٦] الذي تأكله، والسمول [٧] الذي تلبسه، الا ليستخدمك ويستعملك كما يستعمل الآلات الميكانيكية. لا يخدعنك ما ترى في بلادك من مظاهر الثروة على بعض افراد التجار فلو انفقت في وجوههم مصارف (بنوك) أوربا وغلت ايدي

(*) فاتحة العدد الثالث عشر الذي صدر في ٢٥ المحرم سنة ١٣١٦!

(١) صوت الريح «٢» أي ضربها فأصمها «٣» جعلك تحس «٤» صوت من اتقله حمله «٥» صوت النائم «٦» ادنى ما يؤكل «٧» ثوب خلق

تجارها عن امدادهم لحاصوا حيصة الحُمُر، واضطربوا اضطراب الارشية[1] في الطوي[2] البعيدة القعر، لا ترى لك ارض بلادك (اطيانك) الواسعة فقد نقصها القريبون من اطرافها، بل كادوا يحيطون بأكنافها، وقبضوا على موارد الثروة فيها، حتى انهم ليبيعونك ماءها الذي تحتسيه، ويتقاضونك أجرة طريقك الذي تجول فيه، لا تزدهينك عظمة حكامك فقد أمسوا مغلوبين على أمرهم، ومنفذين لارادة غيرهم، الا قليلا ممن انجاه الله تعالى منهم، ولست أخص بهذا ما يفتات به رجال الانكليز على الحكومة المصرية من نحو بيع سفنها وصفاصفها[3] مثلا بل أعم به كل قانون جادت به الحكومات الشرقية (لا سيما الاسلامية) على أهل أوربا فجارت بذلك وعدلت عن طريق الفضيلة الدينية كإباحة السكر والبغاء والكشف الطبي على البغايا الذي تقشعر لتصوره جلود الذين آمنوا وينفعل لتذكره روح كل معتقد بدين سماوي. قلنا انهم مغلوبون على أمرهم لكن هذا الغلب لم يجبروا عليه بكرى[4] المدافع ورصاص البنادق وانما كان لضعف في الدين ووهن في العزيمة وجهل بعاقبة الامور. ادهشتهم عظمة أوربا واستهوتهم زخارف مدنيتها فطفقوا يتقربون اليها، ويقلدونها بأقبح ما لديها، عن غير رويّة ولا بصيرة «الا ساء ما كانوا يعملون»

دع عنك التفكر بسيئات الحكومات واصرف بصرك الى وطنك وماذا يجب له عليك. حدق النظر واستطلع الخفايا واستجل الدقائق يتجلّ لك انك دعامة وجوده، وروح حياته، بك يعيش ويحيا، وبك يموت ويفنى،

---

(١) جمع رشاء وهو حبل الدلو (٢) البئر (٣) أراضيها المستوية

(٤) جمع كرة

بك يعز ويغنى، وبك يذل ويشقى، واذا تجلى لك هذا تشعر بأن لك شأنا عظيما في الوجود وتحس بقواك المقدسة التي أودعها مدبر الكون في جرثومتك الانسانية، فتندفع الى طلب الفضيلة الحقيقية، والكمال الصحيح الذي انت له اهل، ولا ترضى ان تكون نقاعا [١] انفجانيا [٢] أو إمَّعا [٣] اوغطاريا [٤] وان رضي بذلك الجماهير الذين فقدوا هذا الشعور والاحساس الشريف . كل من يرى نفسه في قصور عن اسعاد وطنه واعلاء منار امته فهو كافر بنعمة العقل محروم من الكمالات الانسانية التي ارتقع بها البشر، عن مرتبة الحمر والبقر .

من احط شأنا ممن يرى ان السعادة الانسانية، في التمتع بالشهوات الحيوانية، ويقنع بأن يفوقه الثور في اكله، والعصفور في سفاده، والطاووس في لبوسه، والفرس في خيلائه، والثعلب في حيله، ويطيب له العيش وهذه المجاوات افضل منه واكمل فيما حسبه فضيلة وكمالا . ايه، ان من الحشرات ما يعمل ويسعى لجنسه ووطنه كالنحل والنمل، افترضي ايها الشرقي ان تكون اخس من الحشرات وانقص من الهوام ؟ . الى متى هذا التفرق والتبدد، والتوحيد والتفرد، مدّ يدك لمواطنك ومشاركك في موادّ حياتك وتعاهدوا وتعاونوا جميعا على مافيه منفعة الجميع، اخلط مالك بما له، تختلط نفسك بنفسه، واعملوا مجتمعين فقد كفاكم ماجناه عليكم التفرق والانفراد . بادروا الزمان، قبل فوات الامكان، فيوشك أن لا يدع الدخيل لكم باباً

« ١ » المتكبر بما ليس عنده « ٢ » بمعنى الاول والمفرط فيما يقول « ٣ » هو الرجل الذي لا رأي له ولا عزم فيتابع كل أحد على ما يريد « ٤ » هو الرجل الذي لا خير عنده ولا شر

من أبواب الثروة الا أقفله، ولا سبباً من أسباب النجاح الا قطعه ،فماذا ينفعكم التنبه إذا أغلقت دونكم الابواب، وقطعت بكم الاسباب،ألِّفوا الشركات المالية ، وشيدوا المدارس الوطنية، وربوا أبناءكم وبناتكم على ما تقتضيه مصالحكم الوطنية، وآدابكم الدينية، فلا نجاة ولا نجاح لكم الا بهذا. وأما التشدق بالقيل والقال، والجلاء والاحتلال، وقطع الزمان بالاماني والتشهي ، وتأسف العجائز والزمنى،فهو مما يضيع الفرص ولا يغني عنكم شيئاً والماضي عنوان الآتي

معاشر العثمانيين ، وأنتم أول من أعني بالشرقيين ، ليذكر عالمكم جاهلكم ، ولينذر متنبهكم غافلكم . ألفوا الشركات ، وعلموا البنين والبنات ، « ولا يجرمنكم[1] شنآن[2] قوم على أن لا تعدلوا » ولا يصدنكم اختلاف المذاهب، عن الاتفاق على المكاسب،فقد رأيتم العبر في البلاد التي أصابت لوساوس الاعداء ، وعملت بدسائس الدخلاء،وكيف خربت ديارهم ، واجتثت أشجارهم ، وسفكت دماؤهم ، ويتمت أبناؤهم ، وما كان من قلب اوضاع ، واستباحة ابضاع ، والدين من وراء ذلك ، ينهى عن انتهاج هذه المسالك

تفكروا في معنى الامة والوطنية واقدروا حق الشعب قدره ، يتضح لكم ان الامة تتكون بالاجتماع، على الانتفاع ، وبالاتحاد، على نيل المراد، وبتربية الحاكمين الذين يقيمون النظام ، ويحفظون الامن العام؛ يسهل على الشعب أن يربي أفرادا وأمماً، ويعسر على الآحاد أن تربي شعبا كبيراً وأمة عظيمة ، لا سيما مع قلة المال ، وسوء الحال ، فختام التعلق بأذيال الحكومة ،

«١» يحملنكم «٢» بغض

والتشبث بأهداب الآمال الموهومة ، والانحاء على الدولة بالتقصير ، والانخداع بالغش والتغرير ،

تنبه جماعة من اخواننا الاتراك الى أن الامة في حاجة الى اصلاح ولكنهم جهلوا طريقه أو تجاهلوه فلجأ بعضهم الى أوربا وبعضهم الى مصر وانشأوا جرائد للتنديد بسياسة المابين الهمايوني ونالوا من مقام الحضرة السلطانية مانالوا، وطعنوا في رجال الدولة العلية وسوءأوا أعمالهم وأحكامهم ، والتف عليهم قوم آخرون، ولايخفى على الناس مايسرون جميعهم ومايعلنون، ولو صرفوا أقلامهم الى التعليم ، لهدوا الى صراط مستقيم

أو لم يكفهم ان سلطانهم وامامهم هو مقاوم بسياسته وحكمته لاوربا كلها، وانه قد أوقف بقواه العقلية الباهرة من تيارات الحوادث، وسكن من عواصف الكوارث، ماتعجز عنه الجماعات بل الامم، حتى قال فيه رئيس ساسة الانكليز الذين يفوقون ساسة كل الامم وهو المستر غلادستون الشهير « ان السياسة الحميدية تغلبت على السياسة البريطانية وقهرتها في المسألة الارمنية » والفضل ما شهدت به الاعداء، واعترف به الخصماء ، فاذا تفرغ من هذا شأنه لاعارة الاعمال الداخلية نظراً ألا يعد ذلك من خوارق العادة في القوى البشرية؟ بلى وان مولانا السلطان الاعظم قد بذل من العناية في داخلية ممالكه مالو ساعده عليه أهلها ولم تعق سيره فتن السياسة لنهض بها نهضة عظيمة كما يشير الى ذلك قول « الاستاذ اللغوي فيري الرحالة المجري » من بضع سنين في ترجمة مولانا السلطان أيده الله تعالى وهو [1]

(١) في هذه الرسالة زيادة على ما نقلناه عن فيري في أثناء ترجمة السلطان عبد الحميد

« أقول عن ثقة وروية انه اذا استمر الاتراك سائرين في المنهج الذي نهجه لهم سلطانهم واذا لم تعرقلهم مشاكل السياسة ومخاطرها بلغوا مبلغا يذكر فيشكر بعد زمان وجيز وتوطد أساس ارتقائهم العقلي والاقتصادي ووجودهم السياسي في مستقبل الايام. ولقد قال لي جلالة السلطان يوماً « قد جعلت السلم غرضي أسعى اليه جهدي اذ السلم هو الدواء الذي يشفي ما أصابنا في الماضي من قروح التقصير وادواء الاهمال وسوء التدبير » وذكر انه سمع من جلالته أيضا ما ترجمته « ان أوربا قد هزقت أرضها ومهدت تربتها أعواما وعصوراً حتى جاءت بما نراه فيها من مصادر الحرية والمنشآت الحربية والآن يطلبون الي أن أقتلع فسيلة من منابت الحرية فيها وأغرسها في أراضي آسيا الوعرة البائرة القاحلة . دعوني أتعهد هذه الاراضي قبلاً بما يحسنها فاقتلع أشواكها وأرفع أحجارها وأفلح تربتها وأخد الاخاديد واحتفر الاقنية لارواثها لان أمطار آسيا قليلة نادرة ثم أنقل تلك الفسيلة اليها وأكون أول من يطيب نفسا ويقر عينا بنمائها ونضارتها وغضاضتها »[1]

نعم ان اطلاق الحرية للشعب الجاهل يزج به في الفواحش ويفضي به الى الهرج والفوضى فلا بد من السعي في تعميم التربية والتعليم مع نوع من الحجر والتقييد واطلاق الحرية لاصحاب الافكار والاقلام رويداً

= له فيه رأي آخر كما وقع لنا فقد علم وعلمنا أن السلطان كان هو العائق للعثمانيين عن الترقي وقد انكشف لنا الحق بعد الاستقرار في بلاد الحرية « مصر » بنحو سنة « راجع مقدمة هذه الطبعة » « ن » انه لبث في الملك نحو ثلث قرن ولم يفعل فيها بما قال بل كان يطارد العاملين ويشكل عم

وويدا في ضمن دائرة الشرع سلافا للمفتونين من حزب تركيا الفتاة الذين يسيرون في طرق مجهولة ، ويرمون لاغراض غير معقولة ، ولقد صدق مولانا أيده الله تعالى فيما أشار اليه من كون أراضي نفوسنا ماحلة من المعارف وفيها أشواك وتضاريس ينبغي ازالتها قبل إلقاء بذور الحرية فيها ، ولقد صدقنا وعده بالاجتهاد في ازالة الموانع وادالة المنافع ، ولكننا لم نساعده على تحقيق أمانيه الشريفة بل منا من تعدى الحدود وما وفى بالعهود[1]

أين الشركات التي عقدناها ، والمدارس الوطنية التي شيدناها ، اما منعنا امتيازات لانشاء سكك حديدية فحملت الجهالة من لعدم من أمثالنا وأنفسنا ، على انظار الاجانب على أنفسنا وبيع الامتيازات بأبخس ثمن ، مع ان بيعها بمعنى بيع الوطن ، أنشأ الامير العاقل سعادتلو محمد باشا المحمد مدرسة في عكار فجاء برتبة عالية «ميرميران» ووسامات زاهية ، وانعم على المدرسة بكتب قيمة ، ونسبها الى ذاته المعظمة ، « الحميدية » فهل وراء هذا ترغيب وتنشيط ، وهل ينبغي ان يكون معه تقاعد وتفريط ، ولولا اشتغال مولانا أيده الله تعالى بحل المشكلات ، ومعالجة المعضلات ، لنال الملك بحزمه وهمته آماله ، وبلغنا من الارتقاء فوق ماقدر بذلك الرحاله ،

وخلاصة القول ان مولانا السلطان الاعظم سدده الله تعالى جار على قاعدة تقديم رده المفاسد على جلب المصالح ، وما يعلم انه الاهم على المهم ، ومع ذلك لا يأتي أن يكافىء من أصلح خللاً ، وأحسن عملاً ، وانه يتعين على علماء الامة وأغنيائها ان يوافوا رغبته في اصلاح داخلية البلاد والعمل على

« ١ » اما والله انني كنت معتقدا لهذا القول يوم كتبته وانما كان اعتقادي فيه بطلا وغرورا من سيىء الشبهة الآتية

ترقيتها لاسيما تعميم تربية الملكة والتعليم الصحيح فهما الكافلان باستئصال الامراء الخونة ، والحكام الظلمة ، والعاملان على اضطلام [1] الغي والفساد ، والبغي والإلحاد [2] هما المطهران للنفوس من أدران الرذائل ، والمسبغان على الارواح حلل الفضائل ، بل هما الروح الذي تحيا به الشعوب والامم ، والنور الذي تستضيء به في دياجير الظلم ، ولا يمكن الحصول على الغرض منهما الا بارشاد العلماء ، وإرفاد الاغنياء ، فمن قصّر في وظيفته منهما فهو خائن لامته ودولته ، عدوّ لوطنه وملته ، فالجهل خير من علم لا ينفع ، والاملاق (الفقر) أفضل من ثراء (غني) لا يرفع ، ومن يرغب عن الحكمة الى اللهو ، ولا يعرض عن مجالس اللغو ، فهو جهول وان وسموا بالعلم تدجيله ، وصاحب فضول وان سموه صاحب الفضيلة ، ومن يحرز المال في صناديق الحديد ، ويمسكه عن كل مشروع مفيد ، وهو يرى بلاده تباع للدخلاء ، وأرضه ثروتها تتنازعها الغرباء ، وابناءها منغمسين في الترف ، وبناءها على شفا جرف ، فهو الخاسر المغبون ، والخائن الملعون ، والاخرق المجنون ، انفاقه سفه وتبذير ، وامساكه شح وتقتير ، بل خراب وتدمير ، وان رفعت قصوره ومراتبه ، ونصبت موائده ومآدبه ، وجرّت مركباته (عرباته) وجرَت مراكبه ، (ذهبياته)

فالوطنَ الوطنَ أيها المصريون ، الوطن الوطن أيها العثمانيون ، جانبوا البطالة والكسل ، وأجيبوا داعي العلم والعمل ، احفظوا جامعتكم العثمانية ، واخلصوا للدولة العلية ، تعاونوا على البر والتقوى ، وتمسكوا من الحزم بالسبب الاقوى ، وابتدروا المنهج القويم ، ولا تكونوا كدابنة

« ١ » استئصال « ٢ » جمع أد هو المنكر والعجب والامر الفظيع والداهية